العلاقات التاريخية والاستراتيجية بين الإسلام والمسيحية

د.محمد رفعت أحمد زنجير
أستاذ مشارك
كلية التربية والعلوم الأساسية- أبو ظبي
جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا
دولة الإمارات العربية المتحدة
mohdrifat@hotmail.com

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
محمد رفعت أحمد زنجير ، العلاقات التاريخية والإستراتيجية بين الإسلام والمسيحية.- دورية كان التاريخية.- العدد الثاني عشر ؛ يونيو ٢٠١١. ص ٥٧ — ٧٠. (www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

السلام في الحياة الإنسانية هو الهدف الأسمى لجميع الأمم والشعوب ، وذلك نابع في الأصل من القاعدة المشتركة بين الأديان قاطبة التي تحرم العدوان ، وتأمر بتعاون الإنسان مع أخيه الإنسان ، والقاعدة الفكرية للشرائع السماوية في الأصل واحدة ، قبل أن يطرأ على البشرية فكرة التغيير والتبديل ، وتقتحم الوثنية عقول الناس وتصوراتهم الباطنة ، وجوهر الشرائع السماوية واحد ، وهو تنظيم علاقة الإنسان مع ربه من جهة ومع أخيه الإنسان من جهة أخرى ، أي تنظيم حياة الإنسان وطرق تعامله مع عالم الغيب والشهادة ، ومن هذا المنطلق فهي تدعو إلى التعايش والتآلف بين الناس جميعًا.

وتعتبر العلاقات الإسلامية المسيحية نموذجا لعلاقات التسامح والتعايش السلمي بين الأديان والشرائع قاطبة ، قال تعالى: {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}[١] ، فليس ثمة أحد أقرب إلى المسلمين من النصارى ، قال الزمخشري: (وفيه دليل على أن التعلم أنفع شيء وأهداه إلى الخير وأدله على الفوز حتى علم القسيسين).[٢] ، وقال ابن كثير: (أي الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة ، وما ذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة ، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً}[٣] ، وفي كتابهم: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، وليس القتال مشروعا في ملتهم ، ولهذا قال تعالى: { ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}[٤] ، أي يوجد فيهم القسيسون وهم خطباؤهم وعلماؤهم)[٥].

وقد قامت هذه العلاقات التاريخية والاستراتيجية على أسس متينة منذ بزوغ شمس الإسلام بمكة المكرمة مصدقا برسالة السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام الذي أنكرت رسالته بنو إسرائيل ، وحاولوا أن يقتلوه ، يقول النبي عليه السلام: (أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة ، الأنبياء إخوة من علات ، وأمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وليس بيننا نبي).[٦] وقد مرت العلاقات الإسلامية المسيحية بمراحل مختلفة من المد والجزر عبر التاريخ ، ولعبت فيها مصالح كثيرة ومؤثرات شتى ، بيد أنها على العموم تبقى علاقات إيجابية وعميقة وحسنة واستراتيجية إلى حد كبير.

وهذا البحث الذي نقدمه يهدف إلى وضع تفسير علمي موضوعي للعلاقات بين الديانتين السماويتين ، وإثبات أنها علاقات تاريخية واستراتيجية وطيدة ، يرتكز على متانتها الأمن والاستقرار في هذا العالم ، وذلك بغرض فهم أفضل للعلاقات التاريخية بين الأديان ، وإثبات أنها تقوم عموما على الحوار والتسامح وليس على العداوة والبغضاء كما يقرره منكرو الأديان من الملاحدة والزنادقة ومن تابعهم من ذوي الفلسفات المادية التي تنكر ما وراء الطبيعة ، فالأديان لم تكن يوما إلا مع السلام والتعاون لما فيه مصلحة الإنسان.

المبحث الأول
جذور العلاقة التاريخية بين الإسلام والمسيحية

العلاقة التاريخية بين الإسلام والمسيحية قديمة جدا ، وتعود إلى عهد المسيح الذي مهد الطريق لبعثة محمد ، وهو ما سنتناوله بشيء من التفصيل:

أولاً: بشارة السيد المسيح بمحمد عليهما السلام

تبدأ العلاقة بين الإسلام والمسيحية منذ حياة السيد المسيح عليه السلام ، حيث بشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ، قال تعالى: {وإذ قال عيسى بنُ مريمَ يا بني إسرائيلَ إنّي رسُولُ اللّهِ إليكُم مُصدِّقا لما بين يديَّ من التّوراةِ ومُبشِّرا برسولٍ يأتي من بعدي اسمُهُ أحمدُ فلمّا جاءهُم بالبيّناتِ قالوا هذا سحرٌ مُبينٌ}[٧] .

وقد كان رهبان النصارى على علم ببشارة عيسى عليه السلام لهم ببعثة أحمد ، لذلك كانوا يترقبون بعثة النبي عليه السلام ، وحين خرج أبو طالب تاجرا في رحلة الصيف إلى الشام ، ومعه ابن أخيه محمد وهو حدث صغير السن آنذاك ، فمر على بحيرى الراهب ، وتم اللقاء بينهما بطلب من بحيرى ، وسأل بحيرى محمدا عن أشياء كثيرة فأجاب عنها ، ورأى خاتم النبوة بين كتفي محمد ، فأدرك أنه نبي آخر الزمان ، وكان مما قاله عقب اللقاء موجها حديثه لأبي طالب: (.. فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه ، وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده)[٨] .

وتستمر العلاقة بين الإسلام والمسيحية إلى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء مصدقا لما قبله من أنبياء ورسل عليهم السلام ، حيث أمره الله بالإيمان بالأنبياء والمرسلين جميعا عليهم السلام بلا تفريق ، قال تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[٩] .

وقد شهد القرآن الكريم بصدق عيسى عليه السلام ونبوته ، وبرأه مما شوه سيرته من دعايات يهودية مغرضة حول أمه السيدة مريم ، فنزلت سورة كاملة باسمها ، وهي سورة مريم ، بينت فضل السيدة مريم ، وقصة حملها وولادتها لعيسى عليه السلام ، وبينت أن عيسى عليه السلام رفع إلى السماء. وذكر النبي صلى الله عليه وسلم لأتباعه بأن عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان ، فيقتل المسيح الدجال ، ويدفن قرب قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ففي الحديث: (ينزل عيسى بن مريم إلى الأرض ، فيتزوج ويولد له ، ويمكث خمسا وأربعين سنة ثم يموت ، فيدفن معي في قبري ، فأقوم أنا وعيسى بن مريم في قبر واحد بين أبي بكر وعمر)[١٠] .

وعن عبد الله بن سلام .وكان من أحبار بني إسرائيل قبل أن يسلم . قال: (مكتوب في التوراة: صفة محمد وعيسى بن مريم يدفن معه). قال أبو داود [أحد رواة الحديث]: وقد بقي في البيت [بيت عائشة] موضع قبره.[١١] فهل ثمة تلاحم أكثر من هذا بين محمد والمسيح عليهما السلام ؟! محمد الذي لم يدفن معه أحد من ازواجه أو أبنائه أو آل بيته سيدفن معه في الروضة المباركة أخوه المسيح ، أليس هو القائل: (أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة ، الأنبياء إخوة من علات[١٢] ، وأمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وليس بيننا نبي)[١٣] .

كما أشاد القرآن بأتباع عيسى عليه السلام من الحواريين ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}.[١٤] وندد القرآن بما تعرض له النصارى من أتباع المسيح عليه السلام من تصفية جسدية في قصة أصحاب الأخدود ، والتي سجلت أحداثها سورة البروج ، حيث رفض النصارى تبديل دينهم ، واعتناق اليهودية ، واختاروا القتل حرقا على تبديل دينهم ، فحفرت لهم الأخاديد في الأرض ، وأضرمت فيها النيران ، وسيق الشعب المؤمن إلى النار فألقي فيها مكبلا مقهورا ، وذلك كما ذكر ابن إسحاق.[١٥]

وقد ورحب الرسول صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين به من أهل الكتاب ، فهؤلاء لهم أجران: أجر الإيمان بنبيهم ، وأجر الإيمان بمحمد عليه السلام[١٦] ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم مؤمنا بالتعايش السلمي مع أهل الكتاب ممن لم يؤمن برسالته ، وتشهد لذلك وثيقة المدينة التي كتبها عند وصوله إليها ، وفيها يوادع اليهود ، كما يشهد لذلك أقواله وأفعاله الشريفة ، وقد أشاد غوستاف لوبون بسماحة النبي صلى الله عليه وسلم وتعايشه مع الآخرين ، فقال: (إن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية ، وإنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله ، كاليهودية والنصرانية على الخصوص ، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته ، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا المرتابون ، أو المؤمنون القليلون من الذين أنعموا النظر في تاريخ العرب)[١٧] .

ثانيًا: معنى أهل الكتاب

المراد بأهل الكتاب أهل العلم الأول ، وهذا المصطلح يحمل في طياته معنى كريمًا ، حيث يشير إلى تخصص جماعة من الناس بالمعرفة الربانية دون سواهم ، والكتاب المقصود به: التوراة المنزلة على موسى عليه السلام ، وهي العهد القديم ، والإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام ، وهو العهد الجديد ، وأهل الكتاب صنفان: اليهود والنصارى ، وعنهم قال تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى}[١٨] ، وهذه الآية تأسيس لعلاقاتنا بأهل الكتاب ، وقد زعم بعض الكتاب أنها مخصوصة بأهل الكتاب الذين آمنوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنها ليست عامة ، مستدلين بما جرى من حروب بين النصارى والمسلمين عبر التاريخ ، وهذا غير سليم ، كما سنوضحه فيما بعد ، فالحروب قد تنشأ بين أبناء الدين الواحد كما حصل في الحرب العالمية الأولى والثانية ، حيث تقاتل الأوروبيون فيما بينهم ، كما تنشأ بين أبناء الأديان المختلفة ، وليس بالضرورة أن تكون الأديان سببا للحروب بين الناس ، وإنما قد تقحم في الحروب لأغراض سياسية.

ثالثًا: التقارب مع أهل الكتاب

وفي ظل مجتمع وثني نشأ فيه الإسلام كان من الطبيعي أن يكون هنالك تقارب بين أهل الإسلام والنصرانية إلى حد ما ، فقد ناصبت الوثنية الرسول صلى الله عليه وسلم العداء منذ اليوم الأول ، وكان لا بد للنبي عليه السلام من أن يتحدث إلى أصحاب الأديان السماوية من غير الوثنيين ، فهم أعقل من الوثنيين وأكثر استجابة للحكمة ، لذا كان

قعود الرسول صلى الله عليه وسلم مع نصراني بمكة يؤكد ذلك ، مما أغرى قريشا بدعوى منكرة ، وهي أن النصراني يعلم محمدا ، متجاهلين أن الكتاب الذي أنزل على محمد إنما هو بلسان عربي مبين ، وهو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم التي تحداهم بها ، بينما كان ذلك النصراني لا يحسن العربية ، مما يبطل حجتهم ويسقط دعواهم ، قال ابن إسحاق:[١٩] وكان رسول الله فيما بلغني كثيرًا ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني ، يقال له جبر ، عبد لبني الحضرمي ، فكانوا يقولون: والله ما يعلم محمدا كثيرا مما يأتي به إلا جبر النصراني غلام بني الحضرمي ، فأنزل الله في ذلك قوله:{ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}[٢٠].

وإذا كان هنالك تقارب إسلامي باتجاه النصارى ، فإنه بالمقابل نجد بعض النصارى يألفون محمدا ويسارعون إليه ، فهذا عداس النصراني غلام عتبة وشيبة ابنا ربيعة يحمل إلى النبي صلى الله عليه وسلم طبقا من العنب ، يوم أن طرده سفهاء ثقيف بالطائف ، وأغروا به صبيانهم ومجانينهم ، فرموه بالحجارة ، فآوى إلى حائط يستريح فيه ، فجاءه عداس بذاك الطبق ، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم : (من أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟ قال: نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذاك أخي ، كان نبيا ، وأنا نبي. فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه)[٢١].

والتقارب مع أهل الكتاب هو الذي يفسر لنا سر التعاطف بين المسلمين والروم وذلك بسبب قرب النصارى إلى المسلمين أكثر من غيرهم ، وهذا ما يفسره نزول سورة الروم ، فقد روي عن ابن مسعود ، قال: (كان فارس ظاهرين على الروم ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب إلى دينهم...)[٢٢]. وسيبقى الروم إلى قيام الساعة أقرب إلينا من كل أرباب الديانات الأخرى على سطح المعمورة.

رابعًا: المسلمون في ضيافة ملك نصراني عادل

واضطر المسلمون الأوائل تحت وطأة أذى قريش أن يبحثوا عن موطأ قدم لهم في هذا العالم يستريحون فيه من ذلك الأذى الذي يلاحقهم ليلا ونهارا ، فكانت الهجرة إلى الحبشة التي تكررت مرتين بسبب وجود ملك عادل فيها ، وكان يدين بالنصرانية. وقد خرج في المرة الأولى عشرة من المسلمين ، وكان عليهم عثمان بن مظعون ، وفي المرة الثانية ثلاثة وثمانون رجلا ، بقيادة جعفر بن أبي طالب ، هذا عدا الأطفال والنساء[٢٣] ، وكانت الهجرة باقتراح من النبي صلى الله عليه وسلم على الصحابة ، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم لهم: (لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه).[٢٤]

خامسًا: ثناء القرآن على موقف النصارى من الدعوة الجديدة

وقد أثنى الله سبحانه على موقف النصارى من الدعوة ، وبين أنهم أقرب الناس إلى الإسلام ، حين قال تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}[٢٥] ، وقد قيل إن الآية نزلت في النجاشي وأصحابه.[٢٦]

وبدأ النصارى يسارعون إلى الدين الجديد ، وقد بدأت علامات إسلام النصارى والرسول صلى الله عليه وسلم بمكة ، فقد جاء وفد من النصارى إلى مكة ، والتقوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وأسلموا ، وقامت الوثنية بقيادة أبي جهل بمحاولة ردهم عن الإسلام ، بيد أنه أخفق ، حيث قال لهم: (خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده ، حتى فارقتم دينكم ، وصدقتموه بمال قال! ما نعلم ركبا أحمق منكم! أو كما قالوا ، فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا)[٢٧] وكانوا قريبا من عشرين ، وقد نزلت آيات من القرآن فيهم[٢٨].

وقد استمر إيمان النصارى ودخولهم بالدين الحنيف حتى في أوقات المواجهة بين الفريقين ، ففي معركة اليرموك خرج جرجة أحد الأمراء الكبار من الصف ، واستدعى خالد بن الوليد ، فجاء إليه حتى اختلفت أعناق فرسيهما ، ودارت بينهما محاورة رائعة حول حقيقة الإسلام والنبي عليه السلام ، انتهت بإسلام القائد جرجة ، فتطهر وصلى لله ركعتين ، وقاتل إلى جانب المسلمين ، حتى لقي الله شهيدا.[٢٩] وهنالك بعض النصارى ممن لم يسلموا في جزيرة العرب ، ولكن بقي لديهم شعور باطني خفي يوحي لهم بأن محمدا رسول الله ، ومن هؤلاء وفد نصارى نجران ، الذين وفدوا على النبي عليه السلام ، وتردد بعضهم في إعلان إسلامه ، فدعاهم الرسول إلى المباهلة ، فقبلوا في البداية ، ثم لم يلبثوا أن تراجعوا بعد نصيحة من أحد قادتهم وهو العاقب عبد المسيح الذي قال لهم: (والله يا معشر النصارى ، لقد عرفتم أن محمدا لنبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيا قط ، فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه للإستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا القاسم! قد رأينا أن لا نلاعنك ، ونتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا ، فإنكم عندنا رضا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ائتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين). وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.[٣٠]

سادسًا: ملوك النصارى وموقفهم من الإسلام

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم رسائل إلى أربعة من ملوك النصارى يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وهم هرقل والمقوقس والنجاشي وملك العرب في الشام ، وفيما يلي تفصيل مواقفهم من الدعوة الجديدة:

١- موقف هرقل:

أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هرقل كتابا يدعوه إلى الإسلام[٣١] ، حمله دحية الكلبي ، وقدم الكتاب إلى عظيم بصرى ، فدفعه إلى هرقل ، وكان هرقل عاقلا ذكيا ، تقبل الكتاب وقرأه ، وأرسل يبحث عن أحد من أهل مكة موجود في الشام ليتزود بمزيد من المعلومات حول النبي الجديد ودعوته ، فوجد أبا سفيان ، وكان

مشركا ، ودارت محاورة بارعة بين هرقل وأبي سفيان ، استنتج منها هرقل بعقله الراجح أن محمدا رسول الله ، وقال هرقل: (وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه).[٣٢] ثم دعا قومه إلى الإيمان به ، وقال هرقل بعد حواره مع أبي سفيان: (يا معشر الروم! هل لكم في الفلاح والرشد آخر الأبد؟. وأن يثبت لكم ملككم؟ قال: فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب ، فوجدوها قد أغلقت ، فقال: علي بهم ، فدعا بهم ، فقال: إنما اختبرت شدتكم على دينكم ، فقد رأيت منكم الذي أحببت. فسجدوا له ، ورضوا عنه).[٣٣]

وروي أن هرقل قال لدحية الكلبي: (والله إني لأعلم صاحبك نبي مرسل ، وأنه الذي كنا ننتظر ، ونجده في كتابنا ، ولكني أخاف الروم على نفسي ، ولولا ذلك لا تبعته ، فاذهب إلى صفاطر الأسقف ، فاذكر له أمر صاحبكم ، فهو والله في الروم أعظم مني ، فانظر ماذا يقول لك ؟. قال: فجاء دحية فأخبره بما جاء به من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ، وبما يدعو إليه ، فقال صفاطر: والله صاحبك نبي مرسل ، نعرفه بصفته ، ونجده في كتابنا باسمه ، ثم دخل وألقى ثيابا كانت عليه سودا ، ولبس ثيابا بيضا ، ثم أخذ عصاه ، فخرج على الروم في الكنيسة ، فقال: يا معشر الروم! إنه قد جاءنا كتاب من أحمد ، يدعونا فيه إلى الله ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن أحمد عبده ورسوله ، قال: فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، فضربوه حتى قتلوه ، قال: فلما رجع دحية إلى هرقل ، فأخبره الخبر ، قال: قد قلت لك إنا نخافهم على أنفسنا ، فصفاطر والله كان أعظم عندهم ، وأجوز قولا مني).[٣٤]

وإذا كان هرقل لم يسلم خوفا على ملكه ، فإنه بقي في داخله إحساس صادق بأن محمدا رسول الله ، قال ابن حجر: (يحتمل مع ذلك أنه كان يضمر الإيمان ويفعل هذه المعاصي مراعاة لملكه).[٣٥] وهذا الاحتمال هو ما يفسر حفاظه على كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وأوصى بذلك أولاده من بعده ، (ذكر السهيلي أنه بلغه أن هرقل وضع الكتاب في قصبة تعظيما له ، وأنهم لم يزالوا يتوارثونه حتى كان عند ملك الفرنج الذي تغلب على طليطلة ، ثم كان عند سبطه ، فحدثني بعض أصحابنا أن عبد الملك بن سعد أحد قواد المسلمين اجتمع بذلك الملك فأخرج له الكتاب ، فلما رآه استعبر وسأل أن يمكنه من تقبيله فامتنع. قلت: وأنبأني غير واحد عن القاضي نور الدين بن صائغ الدمشقي ، قال : حدثني سيف الدين بن فليح المنصوري ، قال: أرسلني الملك المنصور قلاوون إلى ملك الغرب بهدية ، فأرسلني ملك الغرب إلى ملك الفرنج في شفاعة فقبلها ، وعرض علي الإقامة عنده فامتنعت ، فقال: لأتحفنك بتحفة سنية ، فأخرج لي صندوقا مصفحا بذهب ، فأخرج منه مقلمة ذهب ، فأخرج منها كتابا قد زالت أكثر حروفه ، وقد التصقت عليه خرقة حرير ، فقال: هذا كتاب نبيكم إلى جدي قيصر ، ما زلنا نتوارثه إلى الآن ، وأوصانا به آباؤنا أنه ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزال الملك فينا ، فنحن نحفظه غاية الحفظ ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا)[٣٦].

قال ابن حجر عقب إيراد هذه القصة: (ويؤيده ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما جاءه جواب كسرى قال: مزق الله ملكه ، ولما جاءه جواب هرقل ، قال : ثبت الله ملكه)[٣٧]. وقد بقي ملك الروم حتى الساعة ، بينما سلط الله على كسرى ابنه شيرويه ، فقتله[٣٨] ، وانتهت دولة الفرس عقب ذلك بقليل.

٢- موقف المقوقس

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس صاحب الإسكندرية حاطب بن أبي بلتعة يحمل إليه رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام[٣٩] ، فأقام محاورة بشأن النبوة المحمدية مع حامل الرسالة بحضور رؤساء الدين المسيحي ، وقد أعجب بمنطقه ، وقال له: (أنت حكيم قد جاء من عند حكيم ، هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد)[٤٠] واعتذر إلى النبي صلى الله عليه وسلم بلطف ، وقد أهدى المقوقس إلى رسول الله أربع جوار منهن مارية القبطية أم إبراهيم بن رسول الله.[٤١]

٣- موقف النجاشي

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري برسالة إلى النجاشي رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام[٤٢] ، وهو ليس النجاشي الذي صلى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم[٤٣] ، لأن الأول هو النجاشي الأصحم صاحب الحبشة الذي هاجر إليه المسلمون الأوائل ، ورفض تسليمهم لوفد قريش بقيادة عمرو بن العاص[٤٤] ، وقد أسلم ، وكتب للنبي برسالة جاء فيها: (وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله ، فإني أشهد أن ما تقول حق ، والسلام عليك يا رسول الله)[٤٥]. وقد خرجت عليه الحبشة لأنه فارق دينهم ، وردهم إلى الطاعة بدهائه ، ومات سنة تسع ، فصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم.[٤٦]

٤- موقف ملك العرب بالشام

وبعث الرسول صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب إلى ملك العرب من النصارى بالشام: المنذر بن الحارث الغساني صاحب دمشق ، وكتب معه: (سلام على من اتبع الهدى وآمن به ، وأدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك ، فقدم شجاع بن وهب فقرأه عليه ، فقال: ومن ينزع ملكي مني ؟ إني سأسير إليه).[٤٧]

سابعًا: نظرة تحليلية في مواقف ملوك النصرانية من الدعوة الجديدة

ونلاحظ أن مواقف عامة ملوك النصارى من غير العرب فيها تعاطف مع الدعوة الجديدة وميل نحو الإسلام ، حتى إن أحدهم اعتنقه وهو النجاشي ، وأبدى الآخران: هرقل والمقوقس رغبة في اعتناقه ، بيد أن سكرة الملك ، والخوف على السلطان الدنيوي الزائل من الزوال ، جعلهما يعتذران بلطف للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويفرطان في الثواب الخالد عند مليك مقتدر.

وأما ملك العرب فقد رفض الإسلام عن جبروت وطغيان ، ولم يكلف نفسه عناء البحث حول صدق الدعوة الجديدة ، وإنما أعلن لها العداوة والتحدي معتمدا على سلطانه الدنيوي ، وحسب أن الدعوة تمثل رسالة تهديد واستفزاز له فجحدها دون أن ينظر في حقيقتها ، تماما كما هو حال مشركي العرب الذين كفروا جحودا واستكبارا ، لا بسبب من علم أو عقل.

ولا ريب أن بعض رجال الدين المسيحي في ذلك العصر يتحملون قسطا من المسئولية التاريخية فيما حصل من رفض للدعوة الإسلامية ، وما أتبع ذلك من حروب أذهبت سلطان هرقل والمقوقس عن الشام ومصر ، فقد كان اسم محمد مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل كما أقر بذلك بعض علمائهم الذين اعتنقوا الدين الإسلامي ، فلو أنهم أطاعوا ملوكهم ، واتبعوا الدين الحنيف لقضي الأمر ، بيد أن

ذلك لم يحدث ليس لسبب يمس صدق محمد، وإنما خوفا على سلطانهم ونفوذهم الذي كانوا يتمتعون به عند عامة الناس، فقد كانوا يكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها في سبيل الله، ويأكلون أموال الناس بالباطل كما صرح بذلك الله تعالى في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[٤٨]، وهذه شيمتهم قديما، ولذلك قال أبو العلاء المعري:[٤٩]

إذا كشفت عن الرهبان حالهم فكلهم يتوخى التبر والورقا[٥٠]

فهؤلاء كانت مشكلتهم مع الإسلام مشكلة نفوذ ومصالح مادية، وليست مشكلة عقيدية أساسًا، وقد حاولوا تغطيتها بالشبهات العقيدية حرصا على مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية لا غير.

المبحث الثاني

العلاقات مع النصارى داخل الدولة الإسلامية

نناقش في هذا المبحث الجوانب المختلفة للعلاقات بين الإسلام والمسيحية داخل الدولة الإسلامية، وهي علاقات تتسم بالإيجابية والإنسانية واحترام حقوق المواطنة لجميع من ينتسب للدولة الإسلامية، ونبدأ بالحديث عن الحوار الإسلامي المسيحي:

أولاً: الحوار الإسلامي المسيحي

لم يتوقف الحوار بين الإسلام والمسيحية عبر التاريخ، والهدف من الحوار الوصول إلى الحقيقة، المتمثلة بالإقرار بنبوة محمد وعيسى عليهما السلام، وقد دعا القرآن إلى هذا الحوار، قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}.[٥١] ومن أشهر مجالس الحوار الإسلامي المسيحي بعد عصر الرسالة:

- مجلس الباقلاني في القسطنطنية مع القساوسة والرهبان بحضرة ملك الروم الإمبراطور باسيليوس الثاني، الذي حكم من سنة ٣٦٥ إلى ٤١٦هـ، وكانت المناظرة سنة ٣٧١هـ، وكان الباقلاني رئيس البعثة التي أوفدها عضد الدولة.[٥٢]
- ومناظرة رحمة الله الهندي مع القس فندر رئيس المبشرين في الهند في مدينة أكبر آباد سنة ١٢٧٠هـ، والتي دونها في كتابه: إظهار الحق)، وكان الشيخ قد وقف ضد التبشير والإنجليز وأعلن الجهاد ضدهم، ودعا رئيس البعثة التنصيرية المسيحية القسيس فندر إلى المناظرة، (وكان من أهم شروط المناظرة أنه إذا لم يستطع القسيس الإجابة على الأسئلة يجب عليه قبول دين الإسلام، وإذا عجز الشيخ رحمة الله أيضا عن الإجابة فعليه اتباع الدين النصراني، ثم اختفى القسيس بعد الهزيمة التي مني بها)[٥٣] وتناولت المناظرة: التحريف والنسخ والتثليث وحقيقة القرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، قال الشيخ رحمة الله: (فظهرت الغلبة لنا بفضل الله في مسألتي النسخ والتحريف اللتين كانتا من أدق المسائل، وأقدمها في زعم القسيس، كما تدل عليه عبارته في كتاب: [حل الإشكال]، فلما رأى ذلك، سد باب المناظرة في المسائل الثلاث الباقية).[٥٤]
- وهناك مناظرات الشيخ أحمد ديدات مع بعض القساوسة الغربيين، وهي من أشهر المناظرات في هذا العصر.

وأما أشهر العلماء الذين بحثوا في الدين المسيحي من القدماء فهما ابن تيمية في المشرق، وهو صاحب كتاب: (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) وابن حزم الأندلسي في الأندلس.

ثانيًا: قبول الآخر أساس الحرية الدينية في الإسلام

الناس أحرار في أديانهم ومعتقداتهم حسب تصور الشريعة الإسلامية التي لا ترى وصاية على عقول الناس ومعتقداتهم، فلا إكراه في الدين، قال تعالى: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }[٥٥] ولا يقبل كفر بالإكراه، ولا إيمان بالإكراه فالأساس في الإيمان والكفر هو الحرية الإنسانية الكاملة بلا وصاية ولا إكراه، وبناء على الاختيار تكون المسئولية أمام الله تعالى يوم القيامة.

وهنا يثير بعضهم تساؤلات حول آية السيف، وأننا يجب أن نجبر الآخرين على عقيدتنا، وقد رد العلامة ابن كثير على فكرة نسخ آية السيف لآيات السلام، فقال عند قوله تعالى:{ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }[٥٦]: (وإن جنحوا: أي مالوا، للسلم: أي المسالمة والمصالحة والمهادنة، فاجنح لها: أي: فمل إليها، واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر، وقال عبد الله بن الإمام أحمد، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثني فضيل بن سليمان يعني النميري، حدثنا محمد بن أبي يحيى عن إياس بن عمرو الأسلمي، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إنه سيكون اختلاف، أو أمر، فإن استطعت أن يكون السلم فافعل]. وقال مجاهد: نزلت في بني قريظة. وهذا فيه نظر، لأن السياق كله في وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كله، وقال ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة [قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر] وفيه نظر أيضا، لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفا، فإنه يجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم)[٥٧].

ثالثًا: عدالة الإسلام ورعايته لأهل الكتاب

ليس لمسلم أن يظلم معاهدا أو غيره، وإذا وقع شيء من ذلك فلا بد للعدالة أن تأخذ مجراها، وإذا التبس الأمر على الحاكم في الأرض، فإن يد السماء سرعان ما تتدخل لمصلحة المظلوم ضد الظالم، وقد أنزل الله عز وجل عددا من الآيات، في تبرئة يهودي اتهمه أحد الأنصار بالسرقة ظلما وعدوانا، وهذه الآيات هي من قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} إلى قوله: { وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ

عَلَيْكَ عَظِيمًا}[٥٨]، والقصة باختصار أن نفرًا من الأنصار : قتادة بن النعمان وعمه رفاعة غزو مع رسول الله ص في بعض غزواته ، فسرقت درع لأحدهم :رفاعة ، فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال لهم بنو أبيرق ، فأتى صاحب الدرع رسول الله ، فقال : إن طعمة بن أبيرق سرق درعي. فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي اسمه زيد بن السمين ، وقال لنفر من عشيرته: إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان ، وستوجد عنده ، فانطلقوا إلى رسول الله فقالوا: يا نبي الله إن صاحبنا بريء ، وإن الذي سرق الدرع فلان ، وقد أحطنا بذلك علما ، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس ، وجادل عنه فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك. ولما عرف رسول الله أن الدرع وجدت في بيت اليهودي ، قام فبرأ ابن أبيرق وعذره على رؤوس الناس ، وكان أهله قد قالوا للنبي قبل ظهور الدرع في بيت اليهودي إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت. قال قتادة: فأتيت رسول الله فكلمته. فقال: "عمدت إلى أهل بيت يذكر منهم إسلام وصلاح وترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة ؟". قال: فرجعت ، ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله في ذلك. فأتاني عمي رفاعة ، فقال: يا ابن أخي ما صنعت ؟. فأخبرته بما قال لي رسول الله . فقال: الله المستعان. فلم نلبث أن نزلت: (إنا أنزلنا إليك) الآيات. ويقول سيد قطب في التعقيب على هذه القصة: (في هذا الوقت الحرج ، الخطر ، الشديد الخطورة ، كانت هذه الآيات كلها تتنزل على رسول الله وعلى الجماعة الإسلامية لتنصف رجلا يهوديا ، اتهم ظلما بسرقة ، ولتدين الذين تآمروا على اتهامه ، وهم أهل بيت من الأنصار في المدينة ، والأنصار يومئذ هم عدة الرسول صلى الله عليه وسلم وجنده في مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله ، ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة...إن المسألة لم تكن مجرد تبرئة بريء ، تآمرت عليه عصبة لتوقعه في الاتهام ، وإن كانت تبرئة بريء أمرا أمرا هائلا في ميزان الله ، إنما كانت أكبر من ذلك ، كانت هي إقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى ، ولا مع العصبية ، ولا يتأرجح مع المودة والشنآن أيا كانت الملابسات والأحوال)[٥٩].

هذه شريعة الله التي لا تحابي أحدا على حساب الآخر ،وأما شرائع الأرض اليوم التي تلبس مسوح الرهبان وتتستر بالعدالة وحقوق الإنسان ، فهي التي تسمح للإنسان بممارسة التمييز ضد أخيه الإنسان ، وهو الأمر الذي لم تحققه حضارة الرجل الأبيض في هذا العالم بشكل فعلي حتى اليوم. وقد شهد المستشرقون على عدالة الإسلام وسماحته ، في وقت لم يكن يعرف العالم ذلك ، يقول آدم متز: (إن أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وبين أوروبا التي كانت كلها على عهد المسيحية في العصور الوسطى ، وجود عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين ، وأولئك هم أهل الذمة ، الذين كان وجودهم من أول الأمر حائلا بين شعوب الإسلام وبين تكوين وحدة سياسية ، وقد ظلت كنائس اليهود والنصارى وأديرتهم أجزاء غريبة ، واستند أهل الذمة إلى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ، وما منحوه من حقوق ، فلم يرضوا بالاندماج في المسلمين ، وقد كان حرص اليهود والنصارى على أن تظل دار الإسلام دائما غير تامة التكوين)[٦٠].

ويضيف مبينا فوائد التسامح الإسلامي: (كان وجود النصارى بين المسلمين سببا لظهور مبادئ التسامح التي ينادي بها المصلحون المحدثون ، وكانت الحاجة إلى المعيشة المشتركة ، وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق ، مما أوجد من أول الأمر نوعا من التسامح الذي لم يكن معروفا في أوروبا في العصور الوسطى ، ومصدر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان ، أي دراسة الملل والنحل على اختلافها ، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم)[٦١].

رابعًا: أحوال النصارى في الدولة الإسلامية

يطلق على النصارى أهل الذمة ، وهو مصطلح يجمعهم بغيرهم من المعاهدين ، يقول الدكتور فيليب حتى: (أما أهل الذمة وهم في الأصل أهل الكتاب من نصارى ويهود وصابئة ، فقد اتسع نطاقهم بحيث شمل كما رأينا أتباع زرادشت ، وماني ، وصابئة حران ، وغيرهم ، وعومل جميع هؤلاء معاملة أهل الكتاب الذين كان لهم من المسلمين عهد فيه كثير من التساهل والعطف ، فأقام الذميون في مزارعهم ومنازلهم الريفية ، وتمسكوا بتقاليدهم الثقافية ، وحافظوا على لغاتهم الأصلية)[٦٢]والذمة: معناها العهد ، وهو لفظ قد يطلق على كل من له عهد ، يذكر ابن كثير أنه (في سنة إحدى عشرة أمر المأمون بأن ينادى: برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير ، وإن أفضل الخلق بعد رسول الله علي بن أبي طالب)[٦٣] فالمؤمن له ذمة عند الله ، وأهل الكتاب لهم ذمة الله عند المسلمين ، وليس في هذا المصطلح ما يشين النصارى أو غيرهم ، لأن مصطلح المواطن لم يكن شائعا في تلك الأيام ، وإنما الشائع أن يطلق لفظ مسلم أو ذمي على المواطنين في الدولة الإسلامية.

والأصل في العلاقات الإسلامية مع غير المسلمين ممن لم يشهر سلاحه في وجه الإسلام ، أن تكون علاقة بر وعدل وصلة وتعاون ، سواء كانوا يعيشون داخل الدولة الإسلامية أو خارجها ، قال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.[٦٤] وأما من شهر سلاحه على الدعوة وحاربها فإنه يعاقب بالمثل ، سواء كان غير مسلم أصلا ، أو مسلما ارتد عن دينه ، أو مسلما خرج على الأمة وحمل السيف على السلطان الشرعي ، قال تعالى: { فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}[٦٥]. وأما العدوان من جانب المسلمين على غيرهم فمحرم ، قال تعالى: { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}.[٦٦]

وفي ضوء هذه القوانين السامية التي سنتها شريعة الله سبحانه ، تعايش المسلمون مع غيرهم من أبناء الديانات الأخرى ، وقد تبادل المسلمون وأهل الكتاب الطعام ، حيث أحل الله لكل فريق أن يأكل طعام الآخر ، قال تعالى: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ}.[٦٧] وقد حرم الإسلام شتمهم أو شتم دينهم ، أو تسميعهم ما يكرهون ، وحرم سفك دمائهم ، وسمح بزيارتهم ، وبدخولهم المساجد ، وبصلاة المسلمين في الكنائس ، وبلبس ملابسهم ، وعيادة مرضاهم ، والاستعانة بهم في الشدائد عند الضرورة ، وبالتبادل التجاري معهم ، والزواج من نسائهم .. إلخ.

وقد كان لأهل الذمة مكانتهم الرفيعة في الدولة ، (ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال)[٦٨] ، ويكفي أن نذكر هنا بأن أطباء الرشيد كانوا من النصارى ، ومنهم: بختيشوع بن جيورجيس ، ويوحنا بن ماسويه النصراني[٦٩] ، وعلى العموم (كان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب

الخليفة ، وكان رؤساء اليهود جهابذتهم عنده).[٧٠] وقد ولي النصارى مناصب وزارية في العصر العباسي ، وكان للمتقي [٩٤٠-٤٤٠م] وزير نصراني ، أما المعتضد [٨٩٣-٩٠٢م] فقد جعل على المكتب الحربي لجيش المسلمين رئيسا نصرانيا ، (وقد نال أمثال هؤلاء النصارى من أصحاب المناصب العالية ما ناله زملاؤهم المسلمون من الإكرام والتبجيل).[٧١] وكان عدد الذين يلون مناصب كبيرة من النصارى في الدولة الإسلامية كبيرا إلى درجة تبدو الدولة وكأنها ملك لهم ، يقول آدم متز: (ومن الأمور التي نعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية ، فكان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الإسلام ، والشكوى من تحكيم أهل الذمة في أبشار المسلمين وأموالهم شكوى قديمة).[٧٢]

وقد بلغت مكانة أهل الكتاب إلى حد الذروة في ظل الدولة الإسلامية ، يقول الدكتور فيليب حتي: (إن النصارى واليهود كثيرا ما تقلدوا مناصب هامة في دوائر المال والكتابة والمهن الحرة حسدهم عليها بعض المسلمين من العامة ، بحيث ظهرت نتائج ذلك التنافس في استنان شرائع جديدة لإيقاف أهل الذمة عند حدودهم ، غير أن أكثر هذا التشريع الجديد ظل حبرا على ورق ، ولم ينفذ دائمًا).[٧٣] وقد شعر كثير من المسلمين بالغبن نتيجة تصرف النصارى بمقاليد الدولة الإسلامية ، حتى صاروا وكأنهم غرباء في أوطانهم ، وهذا يدل على قدر كبير من الحرية التي تمتع بها النصارى تحت ظلال الإسلام ، يقول آدم متز: (وكانت الحركات التي يقصد بها مقاومة النصارى موجهة أولا إلى محاربة تسلط أهل الذمة على المسلمين ، وسيطرة أهل الذمة شيء لا يحتمله المسلم الحق)[٧٤]. فلا بد من التوازن الاجتماعي بين الطوائف والأديان حفاظا على أمن المجتمع.

وكانت للنصارى حرماتهم تماما كالمسلمين ، فلا يجوز الاعتداء على أرواحهم وأموالهم ، يقول آدم متز: (أما حياة الذمي فإنها عند أبي حنيفة وابن حنبل تكافئ حياة المسلم ، وديته دية المسلم ، وهي مسألة مهمة جدا من حيث المبدأ).[٧٥] وعاش النصارى إلى جانب المسلمين في أحياء واحدة ، فلا عزلة ولا حصار ، (ولم يكن في المدن الإسلامية أحياء مختصة لليهود والنصارى ، بحيث لا يتعدونها ، وإن آثر أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين ، وكانت الأديرة المسيحية منتشرة في كل أجزاء بغداد ، حتى كادت لا تخلو منها ناحية).[٧٦]

وكانت الدولة لها مصداقية عند النصارى ، ولذلك كانت تتدخل للمصالحة بين الطوائف النصرانية ، (وكثيرا ما كان رجال الشرطة المسلمون يتدخلون بين الفرق النصرانية لمنعهم من المشاجرات ، حتى عين حاكم أنطاكية في القرن الثامن الهجري رجلا يتقاضى ثلاثين دينارا من النصارى في الشهر ، وكان مقره قرب المذبح ، وعمله أن يمنع المتخاصمين من قتل بعضهم بعضا).[٧٧] وكانت الدولة تخفف عنهم الضرائب وتضع الجزية عن الضعفاء منهم ، ففي (عام ٣٦٦هـ/٩٧٦م صدر أمر الخليفة الطائع بأن تؤخذ الجزية من أهل الذمة في المحرم من كل سنة بحسب منازلهم ، وألا تؤخذ من النساء ، ولا ممن لم يبلغ الحلم ، ولا من ذي السن العالية ، ولا ذي عاهة بادية ، ولا من فقير معدم ، ولا من راهب متبتل).[٧٨] وكانت الدولة العباسية تجل (وقد نشر أخيرا براءة منحها المكتفي سنة ١١٣٨م لحماية النساطرة ، وهي توضح مدى العلاقات الودية بين رجال الإسلام الرسميين ، وبين رجال النصرانية).[٧٩]

وقد مارس النصارى شعائرهم الدينية بكامل الحرية ، حيث (لم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل في الشعائر الدينية لأهل الذمة ، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضروا مواكبهم وأعيادهم ، ويأمر بصيانتهم).[٨٠] وقد دفع احتفال المسلمين بأعياد النصارى الإمام ابن تيمية في وقت متأخر إلى وضع كتابه: (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) ، مما يدل على إفراط المسلمين في الاحتفال بأعياد النصارى ، حتى كادت الهوية الإسلامية أن تتلاشى ، يقول ابن تيمية: (وأما مشابهة فارس والروم فقد دخل منه في هذه الأمة من الآثار الرومية قولاً وعملاً ، والآثار الفارسية قولاً وعملاً ما لا خفاء فيه على مؤمن عليم بدين الإسلام ، وبما حدث فيه ، وليس الغرض هنا تفصيل الأمور التي وقعت في الأمة ، مما تضارع طريق المغضوب عليهم أو الضالين ، وإن كان بعض ذلك قد يقع مغفورا لصاحبه ، إما لاجتهاد أخطأ فيه ، وإما لحسنات محت السيئات ، أو غير ذلك. وإنما الغرض أن نتبين ضرورة العبد وفاقته إلى هداية الصراط المستقيم ، وأن ينفتح لك باب إلى معرفة الانحراف لتحذره).[٨١] وهذا النص يدل على أمور ثلاثة:

الأول: اتساع التقليد لليهود والنصارى والتأثر بهم من قبل المسلمين.

الثاني: ليس كل تقليد يؤاخذ به العبد ، ولا سيما إذا كان اجتهادا أخطأ فيه.

الثالث: وجوب معرفة الصواب وأحكام الشريعة لئلا يقع المسلم في المزالق ، ويتبع غير سبيل المؤمنين.

هذا حال النصارى في المشرق ، أما في الأندلس فقد (كان أتباع الطوائف النصرانية المختلفة أحرارا في ممارسة دينهم ، كل جماعة على الطريقة التي تألفها ، تابعة نظامها الكهنوتي في أمور القضاء والشريعة ... ولهذا فلم يكن الاحتلال العربي بوجه عام مجحفا بحق أهالي البلاد الأصليين ، ولا هو وضع عليهم أعباء جديدة ، بل إنه قد أفاد الإسبانية من بعض الوجوه كما يقول دوزي ، فقد قضى على سطوة الطبقة المتمتعة بالامتيازات على حساب الشعب ، ومن هذه الطبقة: النبلاء ، والأكليروس ، وحسن أحوال المستخدمين والعمال ، ومنح الملاك النصراني حقوقا كحرية التخلي عن عقاره ، وهو أمر لم يعهده في حكم القوط).[٨٢] وهذا يعني أن النصارى في الدولة الإسلامية كانت لهم كرامتهم وحقوقهم تماما كالمسلمين بلا تمييز ولا تفرقة ، فالجميع سواء في ظل المجتمع الإسلامي الذي تحكمه شريعة العدل بين الناس.

خامسًا: شهادة المستشرقين على عدالة الإسلام

إن أسباب العداوات بين الأمم ليست بسبب الأديان ، فالأديان في الأصل ذات مصدر سماوي واحد ، وكلها تدعو إلى السلام والحب والتعاون ، والإسلام معروف بتسامحه مع الذين يدينون بغيره ، يقول غوستاف لوبون: (وليست المذاهب مصدر عدم التسامح في الغالب ، بل الأشخاص ، وكان العرق العربي من التهذيب والسماحة ما لا يحيد معه عن هذا التسامح ، الذي أقام الدليل عليه في كل مكان منذ بدء فتوحه ، ويمكن القول إن التسامح الديني كان مطلقا وراء ازدهار حضارة العرب).[٨٣]

وقد أشادت زيغريد هونكة بموقف الإسلام من النصارى حين قالت: "إن التسامح العربي العريق هو الذي حمل فاتح مصر القائد عمرو بن العاص على تحاشي أي أعمال سلب أو نهب أو تدمير للمدن المفتوحة ، بل آلى على نفسه المحافظة على ضمان ممارسة حضارتهم

المتوارثة ، كما جاء في وثيقة الاستسلام المبرمة حرفيا ، وللوقوف على البعد الحقيقي لهذا التسامح غير المعهود في أوروبا ، ربما يجلوه هذا النص المأخوذ من إحدى عقود السلام العربية نصا: هذه الاتفاقية تشمل جميع الرعايا المسيحيين: قساوسة ، رهبانا ، وراهبات. إنها تمنحهم الأمن والحماية لكنائسهم ، ومساكنهم ، وأماكن الحج. كما يشمل أولئك الذين يقومون بزيارتها من جورجيين ، يعقوبيين ، أريوسيين ، أحباش ، وسائر الذين يعترفون بنبوة المسيح ، جميعهم يستحق الرعاية لأنهم في وقت مضى كرموا بوثيقة من قبل النبي صلى الله عليه وسلم مهرها بخاتمه ، وفيها يوصينا بأن نكون رحماء معهم ، وأن نضمن لهم الأمن."[٨٤] فالحروب لا يمكن تحميل الأديان تبعة أوزارها ، وإنما هنالك أسباب سياسية واقتصادية واجتماعية تكمن وراء الحروب ، بدليل أننا نرى أبناء الدين الواحد يقتتلون فيما بينهم من أجل مكاسب مادية. ولا ننكر أن بعض الحروب قد تكون أسبابها دينية إما بسبب سوء فهم للدين أو بسبب التعصب الديني ، ولكن الأديان في هذه الحالة لا تتحمل وزر تلك الحروب ، وإنما يتحمل وزر ذلك من أشعل نار الفتنة.

وكان الإسلام أكثر تسامحا مع النصارى من تسامح بعضهم مع بعض ، يقول آدم متز: (على أن الكنيسة الرسمية في الدولة الرومانية الشرقية قد ذهبت في معاداتها للمسيحيين الذين يخالفون رجالها في التفكير أبعد مما ذهب إليه الإسلام بالنسبة لأهل الذمة).[٨٥] وقد بدأ التسامح من عهد النبي عليه السلام ، واستمر هذا الخلق الإسلامي الكريم عند ملوك المسلمين وخلفائهم ، يقول غوستاف لوبون في حديثه عن نتائج الحروب الصليبية: (ولم يشأ صلاح الدين أن يفعل في الصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش ، فيبيد النصارى على بكرة أبيهم ، فقد اكتفى بفرض جزية طفيفة عليهم ، مانعا سلب شيء منهم).[٨٦] وهذا الخلق الإسلامي الرفيع كان موجودا في إسبانيا أيضا ، التي فتحها العرب ، ونشروا فيها العدل والتسامح الديني ، (وتعد كنائس النصارى الكثيرة التي بنوها أيام الحكم العربي من الأدلة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم ، وأسلم كثير من النصارى ، ولكنهم لم يسلموا طمعا في كبير شيء ، وهم الذين استعربوا ، فغدوا هم واليهود مساوين للمسلمين ، قادرين مثلهم على تقلد مناصب الدولة ، وكانت إسبانية العربية بلد أوروبا الوحيد الذي تمتع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها ، فصار عددهم فيه كثيرًا جدًا).[٨٧]

المبحث الثالث

العلاقات الدولية بين المسلمين والنصارى

تتسم العلاقات الإسلامية المسيحية على الصعيد الدولي بأنها علاقات تاريخية حضارية عميقة ، وهي تقوم على جوانب إيجابية متعددة ، وهي أساس الاستقرار لهذا العالم ، قال تعالى: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ) (المائدة:٨٢). ولكن هذا لا يعني بأن هذه العلاقات لم تمر بأزمات متعددة ، وتوتر أحيانا ، ولابد لفهم هذه العلاقات من فهم قضية الجهاد في الإسلام أولا ، وحقيقة الحروب التي خاضها المسلمون مع القوى المناهضة لدينهم خارج الجزيرة العربية ، وحقيقة الحروب الصليبية والاستعمار ، وفيما يلي تفصيل ذلك:

أولاً: الهدف من الجهاد في سبيل الله

الجهاد في سبيل الله هو عبارة عن حرب عادلة لإزالة الديكتاتوريات التي تحول دون الناس وبين حرية العقيدة ، قال تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)[٨٨] ، وليس الجهاد لإرغام الناس على الدخول بالإسلام ، فالله تعالى هو المتكبر ، وهو ملك الملوك ، وقد دعا الناس إلى عبادته لما فيه مصلحتهم ، والقرآن مأدبته في الأرض ، فمن رفض الدعوة لا يقبل الله عمله ولا يجبره على اعتناقها ، لأن من عادة الملوك التكبر ، ولو أن إنسانا أقام دعوة ثم رفض بعض المدعوين إجابتها هل يجبرهم على الحضور أم يعرض عنهم ويسخط عليهم؟ إن عماد التواصل في العلاقات بين الناس هو الرغبة والمحبة وليس الكره والإجبار ، وهو مع رب الناس وملك الناس وإله الناس قائم على هذا الأساس أيضا ، يقول غوستاف لوبون في هذا السياق: (وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة ، فلما قهر النصارى عرب الأندلس ، فضل هؤلاء القتل والطرد عن آخرهم ، على ترك الإسلام ، ولم ينتشر القرآن بالسيف إذن ، بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرا كالترك والمغول)[٨٩].

وقد ابتدأ الجهاد دفاعا عن حقوق المهاجرين الذي أبعدوا عن ديارهم بغير حق ، قال تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}[٩٠] ، وانتهى ليصبح دفاعا عن الإنسان حيث كان ، وتحريرا للإنسانية بكافة أشكالها وألوانها ، وعلى مختلف الأمكنة والعصور من كل الأغلال والديكتاتوريات التي تكبلها ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}.[٩١] وقد كان المسلمون يضحون بأموالهم وأنفسهم من أجل نشر العدالة وإتاحة حرية الاختيار أمام الآخرين ، في عصور لم تكن تعرف شيئًا من الحرية السياسية والدينية ، ولم تكن تعترف بكرامة الإنسان. وهذا سبق عالمي ينبغي للمسلمين أن يفتخروا به ، فهم لم يقاتلوا من أجل نهب ثروات الآخرين ، والاستيلاء على مقدراتهم ، وإنما من أجل نشر العدالة والحرية بين الناس حتى يختاروا العقيدة الصحيحة أو يبقوا إذا شاؤوا على عقيدتهم من دون خوف من حسيب أو رقيب. ومثل هذه الحرب لم تعرفها البشرية في كل عصورها ، فالحرب عبر التاريخ وإلى يومنا هذا سببها المكاسب المادية والجشع والطمع بما عند الآخرين.

وإذا كان العصر الحديث قد وفر للناس نوعًا من الحرية والحماية في ظل القانون ، وسلطة الدولة ، وإذا كانت الدول الكبرى بدأت تفكر بما تسميه حقوق الإنسان وتسعى للتدخل لحمايتها كما تزعم ، فإن هذا الأمر لم يكن موجودا البتة في العصور الوسطى ، ولذلك كان الجهاد في ذلك الوقت استنقاذا للحرية الإنسانية والكرامة البشرية وتحريرا للعقل البشري من وصاية أية قوة طاغية تحول بينه وبين اتباعه للدين الذي يراه دون خوف أو وجل من كافة القوى المتحكمة بمصير الفرد والمجتمع آنذاك.وإذا استطاع القانون إنصاف الناس فلا هجرة ولا حاجة للقتال ، ودل النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على ما هو خير لهم من الجهاد ، وذلك في أوقات السلم والأمن ، وهو ذكر الله ، فقال لهم: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق؟ ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟). قالوا: بلى. قال: (ذكر الله).[٩٢] وأما إذا عجز القانون إنصاف الناس عن ذلك فالقتال يبقى حقًا مشروعًا من أجل تحقيق العدالة إلى يوم القيامة.

ثانيًا: حقيقة الحروب التاريخية بين الإسلام والمسيحية

لم تكن هناك ثمة حرب دينية بين الإسلام والمسيحية عبر التاريخ من جانب الإسلام، بدليل أن الإسلام لو كان يريد إزالة سلطان المسيحية ولا يعترف بها، لهدم كنائسها في بلدانه، ولأجاز الاعتداء على متبعيها وتصفيتهم، ولكان له موقف آخر من الدين المسيحي برمته، وحين فتح المسلمون بيت المقدس، لم يصل عمر في كنيسة القيامة خشية عليها من أن يأخذها المسلمون بعد ذلك ويحولونها إلى مسجد[٩٣]، وكانت هنالك مشكلات تاريخية قديمة بين اليهود والنصارى، فاشترط النصارى على المسلمين أن لا يساكنهم اليهود في المدينة المقدسة، وكان النصارى قد جعلوا الصخرة مزبلة، لأنها قبلة اليهود، ولذلك سميت بالقمامة، وانسحب هذا الاسم على الكنيسة التي بناها النصارى هنالك أيضا، فقام عمر بتنظيف الصخرة بردائه، وساعده المسلمون في التنظيف أيضًا[٩٤]، وحين أعاد صلاح الدين فتح بيت المقدس، فكر بهدم الكنيسة خشية من عودة الصليبيين مرة أخرى للغزو وصولا إلى كنيسة القيامة، بيد أن أولي الرأي من المسلمين أشاروا عليه بعدم فعل ذلك، وقالوا له:(إنهم لا يتركون الحج إلى هذه البقعة، ولو كانت قاعا صفصفا، وقد فتح هذا البلد قبلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وترك هذه الكنيسة بأيديهم، ولك في ذلك أسوة، فأعرض عنها، واتركها على حالتها تأسيا بعمر رضي الله عنه)[٩٥].

وقد أثارت مواقف صلاح الدين النبيلة من المقدسات المسيحية، ومن أعدائه الصليبيين، مشاعر التقدير والإعجاب عند العرب والأوربيين على حد سواء، (ويعد صلاح الدين عند العرب في مصاف الرشيد وبيبرس، وفي مقدمة الذين نالوا شهرة شعبية عند العرب عامة وخاصة، أما في أوروبا فقد أطنب بذكره المنشدون في العصور الوسطى، وكذلك فعل الروائيون العصريون، ولا يزال يعتبر مثال البطولة والفروسية)[٩٦].

فليس هنالك حرب إسلامية مع الإنجيل ولا مع الكنائس والقسس والرهبان، ولا مع عامة معتنقي الديانة النصرانية، وإنما كانت حرب المسلمين مع الروم هي حرب مع سلطة سياسية تأبى الاعتراف بالدين الحق لأسباب سياسية، وترفض نشره بين رعاياها، فلما تمكن الإسلام من إزاحة تلك السلطة ترك حرية القرار للناس في عقائدهم وأديانهم، ودخل الكثير منهم في دين الله أفواجا بعد أن عرفوا الإسلام عن قرب، واختلطوا بالفاتحين المسلمين. وفي هذا الصدد يقول غوستاف لوبون موضحا آثار الحروب الصليبية على النصارى: (إن النصارى تخلصوا من همجيتهم بفضل اتصالهم بالعرب، واقتباسهم منهم مبادئ فروسيتهم، وما تؤدي إليه هذه المبادئ من التزامات، كمراعاة النساء والشيوخ والأولاد، واحترام العهود.. إلخ ،ونذكر أننا بينا في فصلنا عن الحروب الصليبية أن أوروبا النصرانية كانت دون الشرق الإسلامي أخلاقا بمراحل)[٩٧] ويضيف مبينا فضل العرب على أوروبا: (إن العرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي، فكانوا ممدنين لنا وأئمة لنا ستة قرون)[٩٨].

ثالثًا: نظرة تاريخية لتلك الحروب وبواعثها

ولا ريب أن بعض النصارى في الغرب رأوا في انتصار الإسلام وانتشار نفوذه خطرا يهدد مصالحهم، فأعلنوا العداوة له، وكانت خطيئة هؤلاء بحق محمد تشبه خطيئة اليهود بحق عيسى، فكل منهما رفض الاعتراف بالحق والإقرار به، فعمدوا على إشعال فتيل الحرب بين النصرانية والإسلام، يقول أحد شعراء الأرمن على لسان ملكه من قصيدة طويلة:[٩٩]

سأفتح أرض الله شرقا ومغربا ... وأنشر دينا للصليب بصارمي
فعيسى علا فوق السماوات عرشه ... يفوز الذي والاه يوم التخاصم
وصاحبكم بالترب أودى به الثرى ... فصار رفاتا بين تلك الرمائم

ومن شأن مثل هذه القصائد أن تشعل حروبا إعلامية، وقد رد ابن حزم الأندلسي على قصيدة هذا الشاعر بنقيضة لها.[١٠٠]

وقد قامت الحروب الصليبية، وتم إجلاء المسلمين عن الأندلس بسبب الحقد الذي أشعله ملوك الصليبيين، لأغراض ظاهرها دينية وحقيقتها سياسية، لأنه لا تعارض في إمكانية التعايش بين المسيحية والإسلام كما ذكرنا آنفا. ولم تهدأ الصراعات بين المسلمين والروم نهائيا عبر التاريخ، بل استمر التوتر أحيانا في العلاقات بين الطرفين، وذلك ابتداء من عصر الراشدين حيث طمع في معاوية ملكُ الروم، لما رأى اشتغاله بحرب علي، فكتب معاوية إليه: (والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين، لأصطلحن أنا وابن عمي عليك، ولأخرجنك من جميع بلادك، ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت، وعند ذلك خاف ملك الروم وانكف).[١٠١]

واستمرت هذه الصراعات إلى العهد العباسي، حيث فكر الرشيد بحفر قناة تصل بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، لكنه أعرض عن هذا خوفا من غزو الروم للبيت الحرام، مما يعني أن هاجس الخوف من الغارات الرومية بقي ملازما للمسلمين في عز حضارتهم وأوج قوتهم، فقد ذكر السيوطي في ترجمة الرشيد: (وفي مروج المسعودي قال: رام الرشيد أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القلزم، مما يلي الفرما، فقال له يحيى بن خالد البرمكي: كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام، وتدخل مراكبهم إلى الحجاز، فتركه).[١٠٢]

وإذا كان الروم لم يستطيعوا غزو مكة المكرمة عن طريق البحر المتوسط في العصر العباسي وما قبله، فقد حاولوا غزوها من طريق باب المندب في العصور اللاحقة، وبخاصة في بداية العصر العثماني، حيث (وضع البرتغاليون أيضا مخططا صليبيا خطيرا للغاية تمثل في دخولهم البحر الأحمر، وفي استيلائهم على جدة، ثم الزحف منها على مكة المكرمة لهدم الكعبة الشريفة، ثم مواصلة الزحف منها على المدينة المنورة، لنبش قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ومواصلة الزحف بعد ذلك إلى تبوك، وصولا إلى بيت المقدس، حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة).[١٠٣] وكان ذلك في مطلع القرن السادس عشر الميلادي. مما يدل على أن موقف الرشيد بعدم حفر القناة بين البحر المتوسط والبحر الأحمر كان مبعثه قلق حقيقي على المقدسات الإسلامية التي لم يتوان الروم عن تهديدها.

بيد أن هذا القلق كان وليد ظروف تاريخية معينة، فقد حفرت قناة السويس في العصر الحديث، وتسربت منها جيوش الاستعمار باتجاه الشرق الأقصى، ولم تحاول هدم مقدسات المسلمين كما كان يتوهم بعض المسلمين وكما أراد المتعصبون من النصارى، فالنمو العقلي والحضاري للإنسانية في العصر الحديث لم يعد يقبل المساس بالمقدسات لأي دين، وصار يلزم صاحبه احترام الآخر وقبوله ولو كان مغايرا له في العقيدة والدين.وبقيت بعض الثغور الإسلامية في الماضي

كالبراكين الساكنة ، تشتعل بين الفينة والأخرى ، وهذه نماذج لما حدث من غزوات تاريخية بين الروم والمسلمين:

١- في سنة ٢١٠هـ (عدا ملك الروم وهو توفيل بن ميخائيل على جماعة من المسلمين فقتلهم في أرض طرسوس ، نحوا من ألف وستمائة إنسان).[١٠٤]

٢- (وفي سنة خمس وثلاثمائة قدمت رسل ملك الروم بهدايا ، وطلبت من المقتدر بالله عقد هدنة)[١٠٥]

٣- (وفي سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وصلت الروم إلى أرزن ، وميافارقين ، ونصيبين ، فقتلوا وسبوا ، ثم طلبوا منديلا في كنيسة الرها ، يزعمون أن المسيح مسح به وجهه ، فارتسمت صورته فيه على أنهم يطلقون جميع من سبوا ، فأرسل إليهم ، فأطلقوا الأسرى).[١٠٦]

٤- (وفي سنة خمسين وثلاثمائة أخذت الروم جزيرة أقريطش من المسلمين).[١٠٧]

٥- (وفي سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بنى نقفور ملك الروم قيسارية قريبا من بلاد المسلمين ، وسكنها ليغير في كل وقت).[١٠٨]

٦- وفي سنة ٣٥٤هـ دخل نقفور ملك الروم طرسوس ، وهي مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم ، فخرب الجامع والمساجد ، وفرض الجزية ، وأجبر الكثيرين على التنصر (فكان الإنسان يجيء إلى عسكر الروم ، فيودع ولده ، ويبكي ويصرخ ، وينصرف على أقبح صورة ، حتى بكى الروم رقة لحالهم).[١٠٩]

٧- وفي سنة ٤٩٢هـ (أخذت الفرنج بيت المقدس بعد حصار شهر ونصف ، وقتلوا أكثر من سبعين ألفا ، منهم جماعة من العلماء والعباد والزهاد ، وهدموا المشاهد ، وجمعوال اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم)[١١٠] . ويصف غوستاف لوبون ما أحدثه الصليبيون من كوارث فيقول: (ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك ، فعقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى ، الذين كان عددهم نحو ستين ألفا ، فأفنوهم على بكرة أبيهم في ثمانية أيام ، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شيخا ، وأراد الصليبيون أن يستريحوا من عناء تذبيح أهل القدس قاطبة ، فانهمكوا بكل ما يستقذره الإنسان من صنوف السكر والعربدة).[١١١]

ويعلل الدكتور فيليب حتى أسباب هذه الحروب الصليبية بقوله: (كانت الحروب الصليبية بنوع خاص كناية عن حركة قامت بها أوروبا النصرانية ردا على آسيا الإسلامية ، وكانت هذه قد اتخذت خطة الهجوم منذ سنة ٦٣٢ ليس على سوريا وآسيا الصغرى فحسب ، بل على إسبانيا وصقلية أيضًا).[١١٢]

٨- وفي سنة أربع وستين وخمسمائة (قصدت الفرنج الديار المصرية في جيش عظيم ، فملكوا بلبيس ، وحاصروا القاهرة ، فأحرقها صاحبها خوفا منهم ، ثم كاتب السلطان نور الدين يستنجد به ، فجاء أسد الدين بجيوشه ، فرحل الفرنج عن القاهرة لما سمعوا بوصوله).[١١٣]

وفي مقابل هذا الغزو المتكرر من الصليبيين ،لم يتورط المسلمون في حروب دينية استئصالية مع الآخرين ، فقد تعايشوا مع كافة الأديان والطوائف التي وجدت في بلاد الإسلام ، وحين دحروا القوى الصليبية قدموا الخدمات والمعونة لمن أراد أن يرجع من الصليبيين إلى بلاده ، وعفا صلاح الدين عن ملوكهم ، (وأطلق السلطان خلقا منهم بنات الملوك بمن معهن من النساء والصبيان والرجال ، ووقعت المسامحة في كثير منهم ، وشفع في أناس كثير ، فعفا عنهم)[١١٤] ، ولم يثأر من كنائسهم أو من النصارى الذين يعيشون جنبا إلى جنب بجوار المسلمين في ديار الإسلام ، وهو ما لم يتحقق لمسلمي الأندلس عندما استولى النصارى على الحكم فيها ، حيث أحرقت المساجد ودمرت المآثر الإسلامية وتم إجلاء المسلمين جميعا عن تلك البلاد.

رابعًا: مقاومة الاستعمار الحديث وأسبابها

حين عاد الاستعمار في العصر الحديث إلى العدوان على البلاد الإسلامية ، قاومه المسلمون بوصفه عدوا محتلا ، وليس لأنه مسيحي ، والإنسان من حقه أن يدافع عن وطنه وممتلكاته في كافة الأديان والقوانين الدولية ، فليس هنالك ثمة حرب بين المسلمين والنصارى هدفها إقصاء العقيدة النصرانية ، وسحق الوجود المسيحي ، وإنما هي حرب بين ظالم ومظلوم ، والظالم ينبغي ردعه عن ظلمه ولو كان قريبا أو حبيبا ، لأن الظلم مما لا يطاق ، قال طرفة:[١١٥]

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

فلا يقبل الظلم من البعيد ولا من القريب ، ولا من أبناء الدين الواحد فيما بينهم ، فكيف بغيرهم ؟ وقد اعترف كثير من الغربيين بأن الدول الغربية هي التي البادئة في عدوانها على المسلمين ، وأن الهدف من هذا العدوان هو إزالة الآخر ، وإقصائه من عقر داره ، وفي هذا الصدد قال لورانس بوران: (شنت الدول الأوروبية في القرن التاسع عشر ، والقرن العشرين حروبا عدوانية على الحكومات المسلمة ، ثم انتزعت منها أراض ضمتها إلى سلطانها ، ولقد كانت النتائج في أحوال كثيرة غير سارة لبعض الشعوب التي استعبدت وخصوصا من المسلمين ، ولكن هذه الشعوب لم تصل بعد إلى درجة تشعر فيها أنها أصبحت أقليات مضطهدة ، أو تعيش في حابورات).[١١٦]

وهذه الحرب السافرة على المسلمين والإسلام سببها الخوف الذي يتهدد الغرب كله من عودة الإسلام ، فقد (كتب كاتب اسمه أشيعيا بومان في مجلة العالم الإسلامي ، مقالا عنوانه: الجغرافيا السياسية للعالم الإسلامي ، ذكر فيه أن شيئًا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي ، لهذا الخوف أسباب منها: أن الإسلام منذ ظهر في مكة لم يضعف عدديا ، بل هو دائما في ازدياد واتساع ، ثم إن الإسلام ليس دينا فحسب ، بل إن من أركانه الجهاد ، ولم يتفق قط أن شعبا دخل في الإسلام ثم عاد نصرانيا).[١١٧]

وقد اتخذت حروب الاستعمار الدين المسيحي غطاء لأطماعه الاقتصادية ، فلقد كان نشيد الجنود الطليان عندما أرادوا فتح ليبيا:

(يا أماه. أتمي صلاتك ولا تبكي ، بل اضحكي وتأملي ألا تعلمين أن إيطاليا تدعوني ، وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا. لأبذل دمي لسحق الأمة الملعونة. ولأحارب الديانة الإسلامية التي تجيز البنات الأبكار للسلطان. سأقاتل بكل قوتي لأمحو القرآن...)[١١٨] ومثل هذا النشيد لا يقبل به السيد المسيح عليه السلام بكل تأكيد فقد كان رسولا للمحبة والسلام ، وهو القائل: (أحبوا أعداءكم). كما أن الجماهير الواعية من المسيحية ترفض العدوان والغزو مهما كانت مبرراته وأسبابه.

خامسًا: التبشير والاستعمار

الديانة المسيحية نشأت في الشرق ، وانتقلت بعد ذلك إلى الغرب ، فلا داعي لأن تحاول أوروبا أن تستخدم الديانة المسيحية التي جاءتها من الشرق أصلا درعا لها للسيطرة على هذا الشرق وإخضاعه لها ، فإننا (إذا نظرنا إلى الحروب الصليبية في وضعها الصحيح وجدنا فصلا متوسطا بين فصول تلك القصة الطويلة ، قصة التفاعل بين

الشرق والغرب، مبتدئة بحرب طروادة وفارس في الأزمنة الغابرة، ومنتهية بالتوسع الاستعماري الأوروبي في عصرنا الأخير).[١١٩]

وتقيم أوروبا حروبها من منطلق ديني لهذا الغرض (ولا تزال أوروبا إلى اليوم تنظر إلى جميع حروبها نظرة دينية ... وإذا اتفقت أن حاربت إنكلترا المسيحية، إيطاليا أو ألمانيا، فلأن ميدان النزاع يكون حينئذ اقتصاديا استعماريا).[١٢٠] وتستخدم أوروبا التبشير سلاحا لها، فهي ما طمحت (إلى الاستيلاء على بلد أو إقليم من قارة إفريقية، أو بعبارة أخرى من الشرق عموما، إلا وسبقت إليه بافتتاح المدارس بمرسليها الدينين ومن تخلق بأخلاقهم، ليمهدوا لها طريق الافتتاح أو الاستعمار).[١٢١] كما أنها تسعى إلى تحريك الفتن الطائفية مستخدمة المبشرين لهذا الغرض، حيث (لم تكن إثارة الحرب بين الدول الكبرى دائما وسيلة عملية للمبشرين، لأنها قد تقود إلى إضعاف دولة مسيحية، وهكذا انصرف المبشرون إلى ما يكون أقرب إلى تحقيق أهدافهم، فوقعوا على إثارة الفتن والاضطرابات، وإذا نحن أدركنا أن الصلة كانت بين السياسيين وبين المبشرين وثيقة دائما، لم نستغرب أن تنتهز الدول المستعمرة مثل هذه الفرص للتدخل في الشرق).[١٢٢]

وما حصل في إندونيسيا مؤخرا يثبت خطط الاستعمار لتقسيم ذلك البلد الذي كان سكانه جميعا من المسلمين، ثم استغل المستعمرون وضع الناس الاقتصادي المزري، فقدموا لقمة العيش مقابل صرف الناس عن العقيدة الإسلامية، وعبر عقود طويلة من الزمن تشكلت نواة مسيحية في تلك البلاد، وقد عاشت باطمئنان إلى جوار المسلمين، ولكنه تم عقب ذلك إشعال فتيل العنف بينها وبين المسلمين، وضخمت وسائل الإعلام الأحداث، وتدخلت جنود الأمم المتحدة، ليتم في النهاية انفصال إقليم تيمور الشرقية عن جسم وطنه الأم، وانتقلت الفتنة الآن إلى أجزاء أخرى من إندونيسيا، لتشتعل في جزر المولوك، وليتحول الأرخبيل الإندونيسي إلى عشرات الدول في المستقبل القريب!

سادسًا: حقيقة الحروب المعاصرة في بعض البلدان الإسلامية

وحقيقة الحروب الجارية الآن في البوسنة وكوسوفا والشيشان، هي حروب للسيطرة الاقتصادية والسياسية أكثر من كونها حروبا دينية، ودفاع المسلمين عن أنفسهم حق مشروع، فهم لا يريدون سحق العقيدة المسيحية كما يصور ذلك المتطرفون من المسيحيين من أجل تبرير حملات الإبادة الجماعية للمسلمين، كما أن المسيحيين الصرب وغيرهم لا تجرهم إلى هذه الحرب نصرة السيد المسيح عليه السلام، ونشر الديانة المسيحية، ولو أنهم صرحوا بذلك، بقدر ما يجرهم إلى ذلك المصالح الاقتصادية والسياسية، فبين الصرب والروس وغيرهم جالية لا بأس بها من المسلمين لم تتعرض للاستئصال والأذى كما تعرض له المسلمون في البوسنة والشيشان، مما يؤكد أن الحروب الجارية الآن هدفها سياسي بالدرجة الأولى، وهي تندرج في إطار خطة الحروب بين الشرق والغرب منذ القدم من أجل السيطرة على العالم، والتي كانت الحروب الصليبية جزءا منها كما تقدم.

كما أننا يجب أن لا ننكر بأن بعض الدول النصرانية وقفت إلى جانب المسلمين في تلك المعارك مع الصرب في كوسوفو، وهذه أول مرة في تاريخ الغرب يخوض فيها حربا من أجل المبادئ وليس المصالح كما ذكر الرئيس الأمريكي، مما يعني أن خطوة بالاتجاه الصحيح قد بدأت، وإن كانت هذه الخطوة قد سبقتها خطوات كبيرة من الإسلام الذي أرسى قواعد التعامل بين الأمم والشعوب، ووضع رؤية واضحة وقانونا عادلا ومنهجا متكاملا قبل أربعة عشر قرنا من المدنية المعاصرة، والتي قامت على السلب والنهب والدموع والدماء في آن معا. بيد أن هذه الخطوة قد تراجع الغرب عنها فيما يبدو، فبينما نجده يؤيد انفصال تيمور الشرقية عن وطنه الأم إندونيسيا لأسباب دينية، نجده قد التزم الصمت حيال ما يجري في الشيشان، بل هو مساند لروسيا في حملتها ضد الشعب الشيشاني المسلم بصورة غير مباشرة، ولا يقدم أية مبادة لحل الأزمة هناك. ولا يوجد من المسلمين من يجيز لنفسه العدوان على النصارى أو غيرهم، ويجب عدم الخلط بين رغبات الشعوب في التحرر وثورتها من أجل الاستقلال، وبين الحروب الدينية والطائفية التي يريد الاستعمار من خلال إثارتها أن يضفي مشروعيته على غزو الآخرين وسحقهم.

وباختصار شديد نقول في ختام هذه الفقرة ليس لدى المسلمين خطة لتصفية الآخرين من أصحاب الديانات التي تغاير دينهم، بل على العكس من ذلك لقد كانوا حماة الحرية الدينية عبر التاريخ كله، وكان أهل الأديان الأخرى يتحاكمون إليهم، وإن ما يقع بينهم وبين غيرهم من نزاعات وحروب في هذه الأيام في مناطق كثيرة من العالم كفلسطين والشيشان وكشمير إنما غرضه نيل التحرر والعيش بكرامة، فلا يجب وصف حركات التحرر بالإرهاب والعدوان إذا كان أصحابها من المسلمين، ويتم مساندتها إذا كان أصحابها من غير المسلمين كما هو الحال في تيمور الشرقية وجنوب السودان على سبيل المثال. فلا بد للعدالة الدولية أن تكيل بمكيال واحد لا بمكيالين.

سابعًا: السلام هدف استراتيجي للأديان جميعا

السلام هدف الأديان جميعا، ولذلك ينبغي للعقلاء أن ينتبهوا إلى ضرورة إطفاء الفتنة، وعدم السماح لوسائل الإعلام المغرضة من أن تشعل نار العداوة بين المسيحية والإسلام في أي ظرف كان، مما سيضعف الديانتين في آن واحد، ولا يحقق إلا مصالح المستعمرين الذين كفروا بالأديان وآمنوا بالحياة المادية فقط، ويسعون للتستر بالدعاوى الديمقراطية ويرفعون شعارات حقوق الإنسان وحماية الأقليات لتحقيق مآربهم السياسية والاقتصادية العاجلة. كما أن مصلحة الديانتين تقتضي الوقوف صفا واحدا أمام مطامع الصهيونية العالمية في القدس وفلسطين، وقد انضم نصارى العرب إلى إخوانهم المسلمين في وحدة وطنية في البلاد العربية جميعا ضد تهويد فلسطين، والمطلوب تعزيز هذا التضامن، وأن يشارك فيه جميع النصارى والمسلمين حول العالم حفاظا على الهوية الحضارية والمقدسات الإسلامية والمسيحية في الأرض المقدسة مما يخطط له أبناء صهيون الذين يعادون الديان جميعا وفي مقدمتها المسيحية والإسلام. ومن مصلحة الديانتين تعزيز الحوار الثقافي بينهما، وتعزيز العلاقات الاقتصادية والإنسانية فيما بين دولهما من أجل مصلحة الإنسانية قاطبة.

وقد وجدنا بعض الكتاب المشككين بعموم قوله تعالى: {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى}، زاعمين أن الآية خاصة ببعض النصارى في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد دفعهم إلى هذا الفهم ما يرونه من حملات الإبادة التي يتعرض لها شعوب إسلامية بأكملها على يد بعض الدول الغربية، وهذا التأويل غير سليم وغير صحيح، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب،

فليس ثمة أحد أقرب إلى المسلمين من النصارى، وقد تمر العلاقة بينهما بتوتر في بعض المراحل التاريخية، بل قد نجد أبناء الدين الواحد يقتتلون فيما بينهم ثم يتصالحون في النهاية، وهذه هي سنة الحياة.

خاتمة

إن العلاقات بين الإسلام والمسيحية في عمقها التاريخي تقوم على التسامح والمودة، وهي علاقات تاريخية تمتد من فجر الإسلام حين آوى النجاشي أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وحماهم من أذى قريش، وحتى اليوم حيث نجد بعض الجاليات والشعوب وبعض الأقليات الإسلامية تجد في ديار الغرب ملاذا آمنا من الظلم والطغيان الذي يلاحقها، مستفيدة من المناخ الديمقراطي داخل الدول الغربية، والذي تأبى أوروبا أن تهب رياحه للشرق.

ولا ننكر أن هذه العلاقات مرت بمراحل توتر كثيرة عبر التاريخ، وذلك بسبب جهل كثير من النصارى بحقيقة الإسلام الذي يؤمن بالمسيح كإيمانه بمحمد عليهما السلام، كما أن هنالك جهلا لدى بعض العامة والغوغاء من الطرفين، قد يجعلهم يغرقون في مستنقع الطائفية الذي تخطط دوائر الاستعمار لتوقعهم فيه.

لقد آن الأوان لتصحيح هذه العلاقات، فلقد تطور هذا العالم من حولنا، وابتعد كثير من الغربيين عن التعصب الديني، مما يسمح بنمو العلاقات بين المسلمين والنصارى في هذا العالم، وجعلها قائمة على التعايش السلمي والاحترام المتبادل والمصالح المشتركة، وتدمير هذه العلاقات لا يصب في مصلحة المسيحية ولا الإسلام، وهو من باب أولى لا يتوافق مع هدي عيسى ولا مع هدي محمد عليهما السلام، وفي صدد تصحيح العلاقات لا بد أن نشيد ببعض الخطوات في هذا الاتجاه، فمن ذلك دعوات تعبر عن التسامح صدرت من الجانبين الإسلامي والمسيحي نذكر منها:

١- كلمة للدكتور يوسف القرضاوي يقول فيها: (إن المسيحيين في بلادنا هم مسلمون بثقافتهم وحضارتهم وإن لم يكونوا مسلمين بالديانة والعقيدة، مسلمون بالثقافة والحضارة، هذا ما عبر عنه المسيحي المصري المعروف الزعيم مكرم عبيد، قال: أنا نصراني دينا مسلم وطنا، يعني هو وجوده في وطن الإسلام جعله مسلما... وكثيرًا ما تقرأ لكتاب مسيحيين، ولمفكرين مسيحيين، ولشعراء وأدباء مسيحيين، كلاما في مدح الإسلام وفي مدح محمد عليه الصلاة والسلام يمكن أن يكون أكثر حماسًا من بعض المسلمين، كان من هؤلاء الأستاذ فارس الخوري الذي كان رئيسًا لوزراء سوريا، كان من أكثر الناس حماسًا للشريعة الإسلامية ولتطبيق الشريعة الإسلامية)[١٢٣].

٢- ولا بد أن نشيد ببعض المواقف الإيجابية التي صدرت عن الفاتيكان في هذا الصدد تعترف بالدين الإسلامي، حيث (أصدر البابا بولس السادس عام ١٩٦٥ وثيقة هامة، كانت بمثابة اعتراف رسمي مسيحي بالدين الإسلامي، ولأول مرة، جاء فيها: إن كل من آمن بعد اليوم بالله خالق السموات والأرض، ورب إبراهيم وموسى، فهو ناج عند الله، وداخل في سلامه، وفي مقدمتهم: المسلمون)[١٢٤].

٣- وجاء في بيان الإرشاد الرسولي الذي أذاعه البابا يوحنا بولس الثاني من بيروت في أيار مايو ١٩٩٧، أثناء زيارته الرسمية للبنان، يقول البيان: (هناك عدد من القيم الإنسانية الروحية الراهنة تجمع بين الإسلام والمسيحية، وقد أوجز أهمها المجمع الفاتيكاني الثاني، بقوله: تنظر الكنيسة بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد، الحي القيوم، الرحمن القدير، الذي خلق السماء والأرض، وكلم الناس، إنهم يسعون بكل نفوسهم إلى التسليم بأحكام الله، وإن خفيت مقاصده، كما سلم لله إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه، وإنهم على كونهم لا يعترفون بيسوع إلها، يكرمونه نبيا، ويكرمون أمه العذراء مريم، مبتهلين إليها أحيانا بتقوى، ثم إنهم ينتظرون يوم الدين الذي يجازي فيه الله جميع الناس بعد ما يبعثهم أحياء، من أجل هذا يقدرون الحياة الأبدية، ويعبدون الله خصوصا بالصلاة والصوم)[١٢٥].

وقبل أن نختم هذا البحث لا بد من ذكر قصيدة تنبع بالحب والوفاء للرسول القائد محمد صلى الله عليه وسلم، وهي تعلم الجيل كيفية احترام الأديان جميعا، وصاحبها هو الشاعر القروي رشيد سليم الخوري من شعراء المهجري، وهو غني عن التعريف لما عرف به من وطنية وعروبة ينبض بهما شعره، وقصيدته التي اخترناها هي بعنوان: (عيد البرية)، وفيها يقول:[١٢٦]

عيد البرية عيد المولد النبوي
في المشرقين له والمغربين دوي
عيد النبي بن عبد الله من طلعت
شمس الهداية من قرآنه العلوي
بدا من القفر نورا للورى وهدى
يا للتمدن عم الكون من بدوي[١٢٧]
يا صاحب السيف لم تفلل مضاربه
اليوم يقطر ذلا سيفك الدموي
يا فاتح الأرض ميدانا لقوتـه
صارت بلادك ميدانا لكل قـوي
يا حبذا عهد بغداد وأندلـس
عهد بروحي أفدي عوده وذوي[١٢٨]
من كان في ريب من ضخم دولته
فليتل ما في تواريخ الشعوب روي
يا قوم هذا مسيحي يذكركـم
لا ينهض الشرق إلا حبنا الأخوي
فإن ذكرتم رسول الله تكرمـة
فبلغوه سلام الشاعر القـروي

ولا نجد خاتمة لهذا البحث خيرًا من قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }[١٢٩].

صدق الله العظيم

الهوامش:

١- سورة المائدة ، الآية (٨٢).

٢- تفسير الكشاف للزمخشري ، صححه مصطفى حسين أحمد ، (٦٧٤/١-٦٧٥)، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٣- سورة الحديد ، الآية (٢٧).

٤- سورة المائدة ، الآية (٨٢).

٥- مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ، (٥٤٠/١)، دار القرآن الكريم ، بيروت ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.

٦- متفق عليه عن أبي هريرة ، انظر: مشكاة المصابيح ، للتبريزي ، بتحقيق الألباني ، (١٥٩٤/٣). المكتب الإسلامي ، الطبعة الثالثة.

٧- سورة الصف ، الآية (٦).

٨ - السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، (١٨٢/١). مؤسسة علوم القرآن.

٩- سورة آل عمران ، الآية (٨٤).

١٠ - رواه ابن الجوزي في كتاب الوفا عن عبد الله بن عمرو ، انظر: مشكاة المصابيح ، للتبريزي ، بتحقيق الألباني ،(١٥٢٤/٣). [مصدر سابق].

١١ - متفق عليه عن أبي هريرة ، انظر: مشكاة المصابيح ، للتبريزي ، بتحقيق الألباني ،(١٥٩٤/٣). [مصدر سابق].

١٢ - بنو العلات: أولاد الرجل الواحد من نساء شتى.

١٣ -متفق عليه ، وقد تقدم هذا الحديث في بداية البحث.

١٤ - سورة الصف ، الآية (١٤).

١٥ - انظر: البداية والنهاية لابن كثير ، (١٢٩/٢-١٣٢)، مكتبة المعارف ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م

١٦ - ورد ذلك في حديث صحيح رواه الشيخان وأحمد والبيهقي والترمذي وغيرهم ، انظر: مشكاة المصابيح ، للتبريزي ، بتحقيق الألباني ،(١١/١). [مصدر سابق]. وفيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ، (٣٣٣/٣)، الحديث : (٣٥٤٨)، دار المعرفة ، بيروت.

١٧ - حضارة العرب ، ترجمة عادل الزعيتر ، ص (١٢٨)، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

١٨- سورة المائدة ، الآية (٨٢).

١٩- السيرة النبوية لابن هشام ، (٣٩٣/١). [مصدر سابق]

٢٠- سورة النحل ، الآية (١٠٣).

٢١ - السيرة النبوية لابن هشام ، (٤٢١/٢). [مصدر سابق]

٢٢- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ، (١٥٠/٥)، دار المعرفة ، بيروت.

٢٣ - انظر: السيرة النبوية لابن هشام ، (٣٢٢/١-٣٣٠). [مصدر سابق]

٢٤ - السيرة النبوية لابن هشام ، (٣٢١/١-٣٢٢). [مصدر سابق]

٢٥- سورة المائدة ، الآية (٨٢).

٢٦- السيرة النبوية لابن هشام ، (٣٩٢/١). [مصدر سابق].

٢٧ - السيرة النبوية لابن هشام ، (٣٩٢/١). [مصدر سابق].

٢٨- السيرة النبوية لابن هشام ، (٣٩١/١-٣٩٢). [مصدر سابق].

٢٩ - البداية والنهاية لابن كثير ، (١٢٩/٢-١٣٢)، [مصدر سابق].

٣٠ - مختصر تفسير ابن كثير ، للصابوني ، (٢٨٨/١). [مصدر سابق].

٣١ - انظر: البداية والنهاية لابن كثير ، (١٢/٧-١٣)، [مصدر سابق]

٣٢- نفسه (٤٣/١).

٣٣ - نفسه: (٦٩/٨)، وانظر أيضا : (٥٨/١). و(٦٢/٨-٦٣). و(١٢٧/٦).

٣٤ - البداية والنهاية لابن كثير ، (١٢٩/٢-١٣٢)، [مصدر سابق]

٣٥ - نفسه (٥٠/١).

٣٦ - فتح الباري ، (٥٨/١)، تحقيق محب الدين الخطيب ، المكتبة السلفية ، القاهرة.

٣٧- نفسه.

٣٨ - البداية والنهاية لابن كثير ، (٢٧٠/٤)، [مصدر سابق]

٣٩ - السيرة النبوية لابن هشام ، (٦٠٧/٤). [مصدر سابق]

٤٠ - البداية والنهاية لابن كثير ، (٢٧٢/٤)، [مصدر سابق]

٤١ - تاريخ الأمم والملوك ، للطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، (٦٤٥/٣) دار سويدان ، بيروت.

٤٢ - السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، (٦٠٧/٤). مؤسسة علوم القرآن

٤٣ - انظر: مشكاة المصابيح ، للتبريزي ، (١١٥٠/٢). [مصدر سابق].

٤٤ - البداية والنهاية لابن كثير ، (١٤١/٤)، [مصدر سابق]

٤٥ - تاريخ الأمم والملوك ، للطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، (٦٥٣/٣) [مصدر سابق].

٤٦ - انظر: السيرة النبوية لابن هشام ، (٣٤٠/١-٣٤١). [مصدر سابق]

٤٧ - البداية والنهاية لابن كثير ، (٣٦٨/٤)، مكتبة المعارف ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م

٤٨ - سورة التوبة ، الآية (٣٤).

٤٩ - اللزوميات ، (١٣٧/٢) دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٥٠ - التبر: الذهب ، والورق: الفضة أو الدراهم.

٥١ - سورة آل عمران ، الآية (٦٤).

٥٢ - إعجاز القرآن ، (٢٧/١-٣٣)، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف.

٥٣ - إظهار الحق ، من مقدمة محمد مسعود سليم ، ص (٢١) نشر إدارة إحياء التراث الإسلامي ، الدوحة ، قطر.

٥٤ - إظهار الحق ، من مقدمة المؤلف ، ص (٤٤) نشر إدارة إحياء التراث الإسلامي ، الدوحة ، قطر.

٥٥ - سورة البقرة ، الآية (٢٥٦).

٥٦- سورة الأنفال ، الآية (٦١).

٥٧- تفسير القرآن العظيم ، (٣٥٦/٢-٣٥٧).

٥٨ - سورة النساء ، الآيات (١٠٦-١١٣).

٥٩ - في ظلال القرآن ، (٧٥١/٢-٧٥٢).

٦٠ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، (٥٧/١)، [مصدر سابق]

٦١ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، (٥٧/١). [مصدر سابق]

٦٢ - تاريخ العرب ، ص (٤٢٢)، دار غندور ، بيروت ، الطبعة السابعة ، ١٩٨٦م.

٦٣- تاريخ الخلفاء للسيوطي ، تحقيق إبراهيم صالح ، ص (٣٦٤) دار صادر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٦٤ - سورة الممتحنة ، الآية (٨).

٦٥- سورة البقرة ، الآية (١٩٤).

٦٦- سورة البقرة ، البية (١٩٠).

٦٧- سورة المائدة ، الآية (٥).

٦٨ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، آدم متز ، [مصدر سابق]

٦٩ - انظر: تاريخ مختصر الدول لابن العبري ، تحقيق الأب أنطون اليسوعي ، ص(٢٢٦-٢٢٧)، دار الرائد اللبناني ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٧٠ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، (٦٨/١)، [مصدر سابق]

٧١ - تاريخ العرب ، د. فيليب حتى مع آخرين ، ص (٤٢٤)، [مصدر سابق].

٧٢ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، (٨٧/١)، [مصدر سابق]

٧٣ - تاريخ العرب ، ص (٤٢٢) ، [مصدر سابق]

٧٤ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، (٨٨/١) ، [مصدر سابق]

٧٥ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، (٦٩/١) ، [مصدر سابق]

٧٦ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، (٧٥/١) ، [مصدر سابق]

٧٧ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، (٧٢/١) ، [مصدر سابق]

٧٨ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، (٨٠/١) ، [مصدر سابق]

٧٩ - تاريخ العرب ، د. فيليب حتى مع آخرين ، ص (٤٢٤) ، [مصدر سابق].

٨٠ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، (٦٩/١-٧٠) ، [مصدر سابق].

٨١ - اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، تحقيق خالد العلمي ، ص (٤٠) ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٨٢ - تاريخ العرب ، د. فيليب حتى مع آخرين ، ص (٥٨٧) ، [مصدر سابق].

٨٣ - حضارة العرب ، ص (٥٧٠) ، [مصدر سابق]

٨٤ - العقيدة والمعرفة ، ص (١١٧).

٨٥ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، (٧١/١) ، [مصدر سابق].

٨٦ - حضارة العرب ، ص (٣٢٩) ، [مصدر سابق]

٨٧ - حضارة العرب ، ص (٢٧٧) ، [مصدر سابق].

٨٨- سورة البقرة ، الآية (٢٥٦).

٨٩ - حضارة العرب ، ص (١٢٨) ، [مصدر سابق].

٩٠- سورة الحج ، الآية (٣٩).

٩١ - سورة التوبة ، الآية (١٢٣).

٩٢ - رواه مالك وأحمد والترمذي وابن ماجة ، إلا أن مالكا وقفه على أبي الدرداء ، قال الألباني: وإسناده صحيح مرفوع. ، انظر: مشكاة المصابيح للتبريزي ، (٧٠٢/٢). [مصدر سابق]

٩٣ - انظر التفاصيل في فتح بيت المقدس في: البداية والنهاية لابن كثير ، (٥٥/٧) ، [مصدر سابق]

٩٤ - البداية والنهاية لابن كثير ، (٥٦/٧) ، [مصدر سابق]

٩٥ - البداية والنهاية لابن كثير ، (٣٢٧/١٢) ، [مصدر سابق]

٩٦ - تاريخ العرب ، د. فيليب حتى مع آخرين ، ص (٧٤٢) ، [مصدر سابق]

٩٧ - حضارة العرب ، ص (٥٧٦) ، [مصدر سابق].

٩٨ - حضارة العرب ، ص (٥٧٩) ، [مصدر سابق]

٩٩ - البداية والنهاية لابن كثير ، (٢٤٧/١١) ، [مصدر سابق]

١٠٠ - انظر: البداية والنهاية لابن كثير ، (٢٤٤/١١-٢٥٢) ، [مصدر سابق]

١٠١ - البداية والنهاية لابن كثير ،(١١٩/٨) ، [مصدر سابق]

١٠٢ - تاريخ الخلفاء للسيوطي ، تحقيق إبراهيم صالح ، ص (٣٣٩) [مصدر سابق].

١٠٣ - الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، أ.د. عبد العزيز الشناوي ، نشرته مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٤م.

١٠٤ - البداية والنهاية لابن كثير ، (٢٧٠/١٠) ، [مصدر سابق]

١٠٥ -تاريخ الخلفاء للسيوطي ، تحقيق إبراهيم صالح ، ص (٤٥٠) [مصدر سابق].

١٠٦ - تاريخ الخلفاء للسيوطي ، تحقيق إبراهيم صالح ، ص (٤٦٦) [مصدر سابق].

١٠٧ - تاريخ الخلفاء للسيوطي ، تحقيق إبراهيم صالح ، ص (٤٧٤) [مصدر سابق].

١٠٨ - تاريخ الخلفاء للسيوطي ، تحقيق إبراهيم صالح ، ص (٤٧٥) ، [مصدر سابق].

١٠٩ - معجم البلدان لياقوت ، (٢٩/٤) ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

١١٠ - تاريخ الخلفاء للسيوطي ، تحقيق إبراهيم صالح ، ص (٥٠٤) [مصدر سابق].

١١١ - حضارة العرب ، ص (٣٢٧) ، [مصدر سابق]

١١٢ - تاريخ العرب ، د. فيليب حتى مع آخرين ، ص (٧٢٤) ، [مصدر سابق]

١١٣ - تاريخ الخلفاء للسيوطي ، تحقيق إبراهيم صالح ، ص (٥٢٤-٥٢٥) [مصدر سابق].

١١٤ - البداية والنهاية لابن كثير ، (٣٢٤/١٢) ، [مصدر سابق]

١١٥ - شرح القصائد العشر ، للتبريزي ، تحقيق د. فخر الدين قباوة ، ص (١٤٦) ،دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١١٦ - التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، د. مصطفى الخالدي ، و د.عمر فروخ ، ص (١٢٩) الطبعة الخامسة ، ١٩٧٣م.

١١٧ - التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص (١٣١) [مصدر سابق]

١١٨ - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، د. محمد محمد حسين ، (١٦٤/٢-١٦٥) ، دار النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

١١٩ - تاريخ العرب ، د. فيليب حتى مع آخرين ، ص (٧٢٣) ، [مصدر سابق]

١٢٠ - التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص (١٣٠) [مصدر سابق]

١٢١ - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، (١٦٤/١). [مصدر سابق].

١٢٢ - التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص (١٣٠) [مصدر سابق]

١٢٣- من كلمة له في برنامج الشريعة والحياة يرثي فيها الكاتب الراحل إدوارد سعيد ، وذلك في برنامج الشريعة والحياة يوم الأحد ٢٠٠٣/٩/٢٨ ، وهي مثبتة بالكامل نصا وصورة في موقع الجزيرة نت.

١٢٤- من كتاب : الحوار دائما ، للدكتور شوقي أبو خليل ، ص (٦٦) ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

١٢٥- من كتاب مقدمة إلى الحوار الإسلامي المسيحي ، محمد السماك ، ص (١٨-١٩) نشر دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م ، نقلا عن جريدة النهار ١٣/٧/ ١٩٩٧م.

١٢٦- ديوان الشاعر القروي رشيد سليم الخوري ، (٤٢٠/١-٤٠٣) دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٨م.

١٢٧- لم يكن رسول الله بدويا بل هو من أم القرى ، ولكن يلتبس على البعض هذا المعنى فيظنون كل من سكن جزيرة العرب بدويا ، وذلك لجفاف مناخها وسعة صحرائها فتشابهت في شظف العيش حياة أهل البادية والمدن فيها.

١٢٨- ذوي: أهلي.

١٢٩ - سورة البقرة ، الآية (٦٢).

الدكتور محمد رفعت زنجير في سطور:

البكالوريوس في اللغة العربية ، قسم الأدب ، من جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ١٩٨٥م ، بتقدير عام جيد جداً. الماجستير في اللغة العربية ، قسم البلاغة والنقد ، من جامعة أم القرى ، ١٩٩٠م ، بتقدير عام جيد جدا ، وعنوان الرسالة: (الفنون البيانية في كتاب الكاشف عن حقائق السنن للإمام الطيبي). بإشراف الأستاذ الدكتور علي محمد حسن العماري رحمه الله تعالى. الدكتوراه في اللغة العربية ، قسم البلاغة والنقد ، من جامعة أم القرى ، ١٩٩٥م ، بتقدير عام ممتاز ، وعنوان الرسالة: (التشبيه في مختارات البارودي ، دراسة تحليلية). بإشراف الأستاذ الدكتور عبد اللطيف خليف نائب مدير جامعة الأزهر الشريف.